الشيخ محمد المرتضى امباكي

(حياته وإنجازاته)

تـــأليف

كوناتي موسى عمر

الشيخ محمد المرتضى امباكي(1921-2004م)

الإهداء

إلى

مؤسسة الأزهر الإسلامية بالسنغال

الشكر

يطيب لي بداية أن أقدم عميق شكري وعظيم امتناني للأخ محمد مرتضى بشير مرتضى أحد أحفاد الشيخ المترجم له. حيث ما أن عبرت له عن رغبتي المتعلقة بإنجاز بحث عن حياة جده وإنجازاته بالسنغال حتى سارع –مشكورا– إلى تزويدي بكل ما يتوفر عليه من معطيات. ولم يضن علي في ذلك بجهد، ولا بمشورة سديدة، ولا برأي هادف. مما ساعدني على تحرير الأفكار وصياغتها وتذليل الصعاب وإنارة مسالك العمل.

وأشكر في السياق ذاته الأخ شعيب تياو الذي أسدى إلي نفس المعروف. وشكري الجزيل موجه إلى كافة طلبة معهد الأزهر بتطوان. لقد رحبوا جميعا بهذه المبادرة. في الحقيقة أن الطلبة السنغاليين يتميزون بالأخلاق العالية والتواضع، وحريصون غاية الحرص على طلب العلم.

وأسأل الله تعالى أن يجعلهم قادرين على تحمل المسئولية الدينية التي تركها لهم الشيخ المرتضى –رحمه الله–.

بسم الله الرحمن الرحيم.

المقدمة

الحمد لله ذي الفضل الدائم. فهو الحي الذي لا يموت. وكل ما سواه زائل لا محالة. وأصلي وأسلم على الحبيب مصطفى الحرز المكنون الموصوف بالأمين، صلاة تزكي القلوب وتشفي الضمائر.

أما بعد.

فإن السنغال يمتاز على غيره من البلدان الإفريقية في كونـــه بلدا له تاريخ إسلامي حافل بعطاءات دينية ومواقف بطولية دونها المؤرخون المنصفون بمداد من الفخر والاعتزاز في متحف التاريخ الإسلامي للسنغال. لقد أنجبت البلاد السنغالية على مر الأزمان وتعاقب العصور شخصيات إسلامية كثيرة اختلفت قيمة عطاءاتها في المضمار الإسلامي باختلاف الأعمال الإسلامية التي أنجزتها في زمانها. مع العلم أن كل شخصية تميزت بمزايا دينية، واجتماعية، وخلقية، وتوافرت فيها مواصفات ميزتها عن غيرهـــا وجعلتـــها

تسطع في محيطها الاجتماعي سطوعا.

وعلى نحو جدير بالبيان، أن تلك الأسماء الإسلامية التي تتوفر عليها الديار السنغالية إن في المجال الدعوي وإن في مضمار الجهاد المشروع الذي كان يهدف إلى الدفاع عن الإسلام من جهة، وعن كرامة المواطن السنغالي من جهة أخرى. لم تختلف خدماتها الإسلامية في مضمونها ومعطياتها التاريخية قيمة وأهمية عما قام به مجاهدون ببلاد إسلامية أخرى من بلدان العالم الإسلامي.

وأذكر في هذا السياق ما بذله كل من هؤلاء الشيوخ السنغاليين المجاهدين الأفذاذ: الشيخ الفوتي الحاج عمر تال، والشيخ أحمد بمبا من جهود دعوية قليلة المثل في التاريخ الإسلامي الإفريقي. وينضاف إليهما الشيخان التيجانيان الجليلان: الحاج مالك سه والشيخ إبراهيم نياس.

لقد صنعوا للسنغال خصوصا ولإفريقيا الغربية عموما تاريخا إسلاميا نضيرا، وبنوا للإسلام فيهما صرحا دينيا شامخا، ورفعوا في أفقهما راية الإسلام خفاقة. شيوخ خلفوا شعبا مشبعا بالإيمان الخالص ومفعما بالحب العميق للدين. ينافح عن بيضته ويموت دونه. الأمر الذي جعل السنغال بلدا إفريقيا ذا نموذج إسلامي رائع بإفريقيا. وإن هذا مما يقف عليه الباحث الموضوعي حين

يصافح الظاهرة التاريخية المتعلقة بالجهاد الإسلامي بإفريقيا من نوع عام والسنغال بشكل خاص.

إن البلد الطيب لا يُخرج إلا النبات الطيب أيضا. وهذا ما وقع للسنغال فعلا؛ فإن الشيخ محمد المرتضى امباكي-رحمه الله- أحد الشخصيات الإسلامية التي أنبتتها هذه البلاد المجاهدة. شخصية إسلامية امتازت على غيرها من خدمة الإسلام في السنغال باهتمامها بالعلم وأهله.

لم يكن هذا الشيخ في حياته مجرد داعية فحسب، وإنما كان ممن كرسوا حياتهم لخدمة السنغال تربويا، وإنسانيا. رجل ذو مشاعر إنسانية نبيلة. فهو صاحب القلب العطوف واليد السخية التي لا تقطر إلا بالحنان ولا تفيض إلا بالعطاء الجزيل. شيخ سخر ثراءه لخدمة العلم ومساعدة طلبته داخل وخارج السنغال. فإذا كانت هذه الديار قد عرفت عبر تاريخها بروز شخصيات إسلامية أخذت على عاتقها القضايا الإسلامية على محمل الجد وضحت من أجلها وتفانت في مجالها أيضا. فإن ما شهدته على عهد هذا الشيخ الذي أسميه تكريما له وتشريفا بـ خادم العلم وأهله بالسنغال، يعد في مجاله فريدا من نوعه.

على أن أهم ما يمكن أن يسجل عنه في سلسلة إنجازاته هو

عنايته الفائقة بتطوير منظومة التربيـــة الإســـلامية في الـــسنغال واهتمامه البالغ بطلبة الدراسات الإسلامية. وقد ظـــل أعوامـــا يناضل من أجل إدماجهم في الحقل العملي بوطنـــهم وضـــرورة توفير الظروف الاجتماعية الملائمة لهم.

إن اهتمامه بقطاع التعليم الأصيل وسهره على إنعاش مجالـــه وجعله قطاعا حيويا بهذه الدرجة اللافتة للنظر، لا ينم إلا عـــن إيمانه الراسخ وإدراكه التام بكون العلم السبيل الأمثل لإحداث الصحوة الإسلامية في القارة. فبالعلم أيا كان نوعه تنهض البلاد وتسمو وترتقي. وإن هذا مما فطن له في وقت مبكر وجعله يرسم لتحقيقه إستراتيجية عملية محكمة، مستندا في كل خططه التربوية إلى المبادئ الإسلامية المشكلة لهوية الشخـــصية الـــسنغالية. إذ استطاع بعد نضال طويل أن يؤصل في وطنه دعائم تعليم إسلامي راسخ ويبلور منطلقاته بإسهاماته الخاصة التي أدت بصورة عميقة مع المدة إلى تعزيز الوعي الديني وتعميق الثقافة الإسلامية لـــدى هذا الشعب المسلم. وتمخض عن ذلك انعكاسات إيجابية كـــثيرة في الحياة السنغالية العامة والإسلامية خصوصا. ونتائجها ملموسة على الأفراد والمجتمع، ويراها المرء حيثما اشرأب في البلاد.

إضافة إلى هذا وذاك، فإنه اتخذ للنهوض بمنظومـــة التعلـــيم

القرآني والإقلاع بها إلى أليق المستويات من الاستثمار وسيلة. وله في هذا المجال مشاريع استثمارية ضخمة. وبذلك زواج بين التعليم والعمل.

إن الإنجازات الجبارة التي مثلها هذا الشيخ في الحقل التربوي لا شك في أنها تدخل ضمن التراث الإسلامي ليس فقط في السنغال وإنما في إفريقيا الغربية برمتها. وهو تراث جدير بالإحياء. ولا سبيل إلى إحيائه إلا القيام بتدوينه للجيل السنغالي المسلم الحالي واللاحق تذكيرا لهم حتى يظلوا يعيدوا ذكراه إلى الأبد.

وبما أن لي اهتماما وولعا كبيرين بالتراث الإسلامي لإفريقيا وما يسير في هذا الركاب. ونظرا لما لجهود الشيخ الطوبوي من قيمة وأهمية في السنغال. فبعد قراءاتي لمجموعة من المقالات المنشورة عن حياة الشيخ محمد المرتضى في بعض المجلات الأكثر مقروئية بالسنغال، والتي من خلالها تمكنت من رصد معلومات مهمة، عقدت العزم أن أعيد قراءة حياته من جديد على وتيرة تبرز هذه القيمة وتظهر تلك الأهمية وتكشف في الآن ذاته عن إنجازاته وتوسم الطموحات التي كان يطمح إليها بقراءة واعية وأسلوب تحليلي رصين ومعالجة هادفة. واشترطت على نفسي في

هذه الدراسة الالتزام بالموضوعية والتحرر الكامل مـــن قيـــود العاطفة المذهبية وكل الاعتبارات. وغايتي فيها هي نشدان الخير واستهداف الصلاح. وآمل أن تكون دراسة موفقة تحقق الغرض وتفي بالمقصود. والله تعالى هو الموفق والهادي إلى الصواب.

مرتيل:**27** / **2007/10**

الموافق: **15** /**10**/**1428**

المملكة المغربية

الحوافز على هذه الدراسة:

فمن خلال العلاقة الأخوية الطيبة التي جمعت بيني والعديد من الطلبة السنغاليين لاسيما طلبة معهد الأزهر الوافدين إلى المغرب للدراسة في كلية أصول الدين بتطـــوان، تعرفـــت شخـــصيات إسلامية بالسنغال ، الشيخ محمد المرتضى امباكي واحد منـــها. وإن اهتمامه الفائق بتطوير مجال التعليم الإسلامي وعنايته بطلبة العلم الشرعي أمر تشهد له الساحة الإسلامية في بلاد السنغال.

وبما أنني من المهتمين بهذا المجال –التعليم الإسلامي بإفريقيا– ونظرا لما لمثل جهود هذا الشيخ من أهميـــة قـــصوى في الحيـــاة التربوية بالسنغال خصوصا وغرب إفريقيا بشكل عام، رأيت أنه من الأهمية القيام بهذه الدراسة التي تروم تدوين حياته وتهدف إلى الكشف عن انجازاته.

وبخصوص البواعث التي حفزتني للقيـــام بتحريـــره فكـــثيرة وأوجزها في نقاط أهمها:

– كون هذا الشيخ جديرا بمثل هذه الدراسة.

– محاولة مني لتوسيم تلك الإنجازات المقدرة التي قام بها داخل وخارج السنغال في المسارين التعليمي والإنساني.

– تحريك همم الشباب السنغاليين خصوصا وإيقاظ عزيمة الباحثين الأفارقة من طلبة الدراسات الإسلامية عموما واستنهاض ضمائرهم إلى ضرورة الاهتمام بالتراث الإسلامي الإفريقي والعمل على إنقاذه من آفات الاضمحلال.

وأشير إلى أنه لما كان هناك خمول في الهمة وكسل في العزيمة حيال هذه المسئولية من لدنا. حيث لم نستشعرها كما كان ينبغي ولم نعطها كذلك قدرها، كان من نتائج ذلك الوخيمة على هذا التراث، قيام كتّاب من غير بيئتنا ومعظمهم لا يكادون يفرقون بين غينيا وغانا جغرافيا، ولا بين بوركينا وكوت ديفوار، بالكتابة عن قضايانا. فحرفوا تارة معالم تاريخية يعرفها حتى الأمي الإفريقي، ووصفونا وقارتنا بالأوصاف النابية تارة أخرى.

ويكفي أن يقرأ المرء تلك الكتابات التي لم يلتزم أصحابها بالموضوعية والحياد في تحليل الظاهرة التاريخية المتعلقة بإفريقيا وشعوبها. وسأفصل الكلام عن هذه القضية في بحثي القادم إن شاء الله تعالى والمعنون بـ: الصورة الإفريقية في الكتابات الأجنبية (صورة الأفارقة).

غير أننا إذا ما نظرنا بعمق إلى هذه التشويهات التي تعرض لها التاريخ الإفريقي والإسلامي منه بالذات، سنلحظ أن اللوم لا

يقع على هؤلاء ولا أولئك، وإنما يقع علينا. فنحن الذين نتحمل من هذه المسئولية نصيبا وافرا لعدم اهتمامنا بهويتنا وكتابة قضايانا بالأيدي الإفريقية العارفة بشعاب القارة. مما جعلنا وقارتنا مستهدفين من قبل أصحاب النوايا غير الحسنة.

ومن هنا؛ تبرز أهمية وقيمة هذه الدراسة التي أفردتها لهذا الشيخ السنغالي ذي المقام المحمود والجهود المشكورة الذي كرس حياته لخدمة العلم وطلبته. وعلى الله قصد السبيل وبه أستعين في هذا العمل وعليه أتكل بدء ووصلا وختما.

الفصل الأول

الشيخ محمد المرتضى امباكي

لمحة من حياته:

لست هنا بصدد التعريف بشخصية الشيخ محمد المرتضى امباكي، إنه معروف ولا داعي للتعريف بما هو معروف. رجل يعرفه عامة السنغاليين وخاصتهم. وإنما لأدرس حياته وأسلط عليها الضوء بشكل يتناسب وقدره ومكانته الإسلامية.

ولد في حدود:1920-1921 بـ دار العليم الخبير المسماة بـ: اندام. فهو أحد أولاد المجاهد السنغالي الشهير الشيخ أحمد بمبا- رحمه الله- هذا الشيخ الذي أبان في المعركة الجهادية بإفريقيا الغربية عن كل الرجولة وامتاز في ساحات النضال ضد الوجود الأجنبي في وطنه بجرأة جعلت المعتدي يعترف بأهمية الشخصية السنغالية الجهادية والنضالية. نصر دين الله ونشر العقيدة الغراء الركن الركين وأصل الأصول فنصره الله. ﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾.1 إذ استطاع أن يتوج التاريخ النضالي والجهادي للسنغال خاصة وإفريقيا عامة بصفحات نيرة تناسلت بالعزة والفخر والمجد. وهذا ما يعن للمنصف حين يقرأ الظاهرة التاريخية المتعلقة بالنضال في المنطقة. فلا غرو إذن أن

---

[1] -سورة الحج الآية: 40

يخرج من هذا النسل الطيب هذا النبات الحسن. ﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه﴾. 1

ولما بلغ سن التمدرس بعد وفاة والده تولى برعايته أخوه الأكبر الشيخ محمد المصطفى2 الابن الأكبر للشيخ أحمد بمبا والخليفة الأول بعده للطريقة المريدية. لقد كان هذا الخليفة يكنَ لأخيه الشيخ محمد المرتضى محبة كبيرة. ولحرصه واهتمامه بأمر تعليمه، أرسله في إطار مواصلة دراسته إلى السيد محمد المختار آل لوح3 الذي كان يسكن بقرية تسمى حسن المئاب وتشتهر بـ: تندودي، وهو شيخ تربطه بالخليفة علاقة نسبية من جهة الأم. وعليه تعلم الشيخ محمد المرتضى حيث كان يُحفظه كتاب الله العزيز.

---

[1] – سورة الأعراف الآية:58

[2] – هو الشيخ محمد المصطفى بن الشيخ أحمد بمبا، ولد في سبتمبر من عام: 1888، وتولى الخلافة عام: 1927، وتوفي عام:1945. كان شيخا هادئا وعطوفا. ومن أهم إنجازاته أنه هو الذي ابتدأ توسعة جامع طوبى ومد السكك الحديدية بين مدينة جوربيل وطوبى. انظر في ذلك في كتاب: النهج القويم في سيرة الشيخ الخديم للحاج محمد المحمود انيانغ الطوبوي ص: 77.

[3] من أتباع والده الشيخ أحمد بمبا

وفي نفس الإطار؛ التحق بكُتاب الشيخ عبد الـــرحمن لـــوح عام:1931 بـــ دار العليم الخبير، وهو أحد الذين اشتهروا على عهد الشيخ أحمد بمبا بإشاعة الدروس القرآنية في السنغال. وقد شرفه الشيخ الخديم بمهمة تحفيظ أولاد المسلمين عموما والمريدين منهم خصوصا، وهي خدمة أداها الشيخ عبد الرحمن أحسن الأداء، وظل يمارسها ما يناهز أربعين عاما.1

ثم عاد إلى الخليفة عام:1936 بـــ طوبى وتعلم عليه بعضا من الكتب الدينية منها: رسالة أبي زيد القيرواني. غير أن أشغال الخلافة لم تـــوفر للخليفة الفرصة للمضي قدما بتعليم أخيه إلى أبعد الحدود.

---

[1] - هو الشيخ عبد الرحمان لوح. ولد في بلدة "ميوندو يوم الاثنين الأول مـــن ربيـــع الأول عام 1271هـــ 1853م من أبوين مسلمين عريقين في العلم والـــدين. وتربطـــه بالشيخ أحمد بامبا مؤسس الحركة المريدية بالسنغال علاقة وطيدة. فهو أبرز الشخـــصيات القرآنية بالسنغال. ولما أجازه شيخه –أحمد بمبا– أرسله إلى بلدة دار العليم الخبير والإقامة فيها بهدف تحفيظ الصبيان بكتاب الله. وقد تعلم على يديه عدد كبير من أعيان الطريقـــة المريدية. وتوفي يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من شهر شعبان 1367هـــ1943م وعمره 89 سنة. راجع لمزيد من التوسع في جهود هذا الشيخ في خدمة القرآن بالسنغال البحـــث القيم الذي كتبه عنه حفيده الأستاذ فاضل لوح لنيل الإجازة بكلية أصول الدين بتطـــوان والمعنون: الدرس القرآني في السنغال الشيخ عبد الرحمن لوح نموذجا. وانظـــر أيـــضا:في كتاب شخصيات من مدرسة الشيخ الخديم. الإعداد:اللجنة الثقافية الإسلامية للأزهر.

لقد أشعلت هذه الدروس في نفس الشيخ رغبة متقدة شجعته على مواصلة مسيرة التحصيل. ولكن ثمة عائق كان يحـــول دون تحقيق هذه الرغبة. وتمثل في كون المحيط القروي لم يكن يوفر له جوا ملائما يمكنه من بلوغ المرام. خصوصا أنه من بيت الخلافـــة الذي يتلقى بين الحين والآخر زيارات وافدة كما هو معروف في الحياة العائلية الإفريقية. بالإضافة إلى هذا وذاك؛ فإن القريـــة لم تكن قادرة من الناحية العلمية على الاستجابة لنوع التحـــصيل الذي يطمح إليه.

وهذه العوامل بجملتها كانت كفيلة لأن يرحل وهو في عنفوان شبابه وريعان عمره عن بلدته في إطار البحث عن فضاء علمـــي آخر يلبي له هذا الطموح. فلم تكن له مندوحة إلا الخروج خفية عن العائلة متوجها صوب البلاد الموريتانية حيث العلماء الأجلاء المشهود لهم بالعلم والصلاح تاركا وراءه الجاه والوجد والثـــراء متجشما عناء الغربة والمشقة. غير أن أهمية العلم هونـــت عليـــه هذه المتاعب. واصطحبه في هذه الرحلة عـــدد مـــن المريـــدين الأوفياء أمثال: الشيخ جينغ، وعمر جوف، وسرين دام بوصـــو الذي التحق بهم في روصو.1 وفي موريتانيا نزل في ضيافة الشيخ

[1] –مدينة بين السنغال وموريتانيا.

أبي مدين ولقي منه ضيافة كريمة.

لقد كانت موريتانيا يومئذ معروفة بوفرة العلماء، وهذا ما جعلها إحدى البلدان المغاربية التي قصدها الأفارقة من كل الطبقات لامتياح العلوم الشرعية من كتاتيبها التي كانت تشع العلوم الأصيلة. وبالإضافة إلى هذا، فقد كانت أيضا مركزا من مراكز التصوف. الأمر الذي جعله يشد رحاله إلى هذه البلاد تحصيلا للعلم. وبما أن له اهتماما قرآنيا، فإنه صرف جهوده كلها إلى حفظ كتاب الله.

قضى في الرحاب الموريتانية عامين كاملين. وبعدهما رجع من رحلة علمية مكللة بالنجاح إلى مسقط رأسه وهو يحلم أن يصبح ذات يوم من خدمة العلم بالديار السنغالية. وعلى الرغم من هذا النجاح، فإنه لم يمل من الاستزادة ولم يستكن أيضا. إذ واصل المسيرة وهو تواق إلى بلوغ الآفاق. فرحل إلى الشيخ حسن بوصو وتعلم عليه كتاب الخليل.1

هذا، ولقد امتاز بمميزات عدة وتوافرت فيه خصائص قلت في العديد من شخصيات من طينته في وقتنا الراهن. هذا العصر الذي أصبح الغرور سمة لغالبية الناس. بيد أن شيخنا كان على

[1] – مختصر الشيخ الخليل في الفقه المالكي

العكس من ذلك تماما. لقد عرف بالأدب الجم، والحياء العـــم، والأخلاق العالية، وصفاء السريرة، وحب الخير للجميع. زيادة كرمه وسخائه الفياض، ومواساته للمحرومين ووقوفه إلى جانبهم بالطاقة المعنوية قبل المادية. مما جعله ذا السمعة الطيبة في محيطـــه الاجتماعي ومحبوبا في السنغال برمته. لقد كان أبا حنونا للأيتام. وهذا مما يعترف به كل سنغالي التقى بهذا الشيخ أو جمعتـــه بـــه المجامع.

الفصل الثاني

إنجـــازاتـــه

إن مجال التعليم الإسلامي بالسنغال كما هو الحال بالنسبة لغالبية بلدان المنطقة، ظل أعواما مجالا غير منعش. على أن عدم إنعاشه يرتبط في الأساس بمجموعة من العوامل الذاتية والموضوعية وكذا بالظروف الإقليمية. وقد مثلت كلها أثرا سلبيا في إعاقة بلورة قضايا التربية الإسلامية بالبلاد الإفريقية غير الناطقة بالعربية وأسهمت في تعميق الهوة التي ألقاه فيها المستعمر متعمدا وخصوصا في السنغال. هذا البلد الذي شكل عبر التاريخ الإفريقي مركزا للقيادة الاستعمارية.

فالذاتية تكمن في فشو ظاهرة الأمية بين الشعوب الإفريقية بصفة عامة. حيث لم يكن هناك تطور في الحياة الثقافية بالقارة. وقد ظلت الأوضاع على ذلك إلى الوقت الذي عرفت فيه المناطق الإفريقية تلك الحركات الدعوية الوافدة التي أسفرت عن إيجاد الكتاتيب القرآنية في أرجاء البلاد، وهي كتاتيب كانت بمثابة المدرسة التمهيدية لكل إفريقي مسلم.

وأما الموضوعية فتتجسد في شخص المستعمر الذي اتخذ حيال كل ما هو إسلامي سياسة عدائية؛ وبالأحرى الاضطهادية. إذ وقف بكل ثقله دون المد الإسلامي. فحارب العلماء وقيد نشاطهم الديني ونفى آخرين عن أوطانهم تعسفا. والحالات من

هذا النوع مسجلة في ذاكرة التاريخ الإفريقي.

وبخصوص المتغيرات الإقليمية، فإن الأقطار الإفريقية سواء في الحقبة الاستعمارية أو السنوات التي أعقبت الاستقلال، لم تعرف استقرارا سياسيا مستتبا على نحو يساعد على العمل التربوي لاسيما الإسلامي منه، دون نسيان لتلك الأوضاع الاجتماعية التي لم تكن مواتية لغالبية القبائل. الأمر الذي جعل معظم هذه القبائل اهتمت بتوفير لقمة عيشها منه بالتعليم. وينضاف إلى هذا وذاك ظاهرة الهجرة.

وبالرغم من هذه الظروف الاجتماعية غير المشجعة للمضي قدما بالمشاريع الإسلامية الطموحة، لم يأبه بعض أبناء إفريقيا المخلصين المحبين لوطنهم والمهتمين بالمستقبل الإسلامي لقارهم بصعوبة الحياة اليومية. كما أن تلكم التحديات الإقليمية والسياسية الجسيمة لم تحل أيضا بينهم وأداء المسئولية الدينية المنوطة بهم. فشمروا عن سواعد النضال في ساحات العمل الإسلامي متكلين على الله الذي لا يخيب أمل من اتكل عليه. فوفقهم لإنجاز أعمال ستظل بلدانهم مدينة لهم بها إلى الأبد.

إن الشيخ السنغالي محمد المرتضى لواحد ممن قدموا لمسلمي السنغال خدمات دينية جليلة ومميزة. ويتجلى ذلك وضوحا فيما

لو ألقينا نظرة مقتضبة على المشاريع التربوية الطموحة التي أنجزها.

كانت البلاد السنغالية أيام والده الشيخ أحمد بمبا تمتاز بوفرة الكتاتيب القرآنية. غير أن أدوارها انحصرت في تلقين الناشئين وتحفيظهم بالقرآن الكريم. وظلت خدماتها كما هو الحال للكتاب بكافة البلاد الإفريقية في هذا الإطار ردحا من الزمن. ولم تكن تلك العوامل التي أسلفت ذكرها تسعفها والقائمين عليها للنهوض بها.

فبعد عودته من رحلته الموريتانية، هذه الرحلة التي صقلت شخصيته وجعلت منه رجلا دينيا واجتماعيا وإنسانيا. لم يكن هناك هم يؤرقه ويقض مضجعه أكثر من التفكير في تحسين الوضعية لهذه الكتاتيب والدارسين بها.

لهذا نراه بنى في حدود عام:74-75 مدرسة ابتدائية متواضعة في دار العليم الخبير (اندام)، التحقت بها جموع غفيرة من أطفال المسلمين من كل الطبقات. وسرعان ما اكتظت عن آخرها وأصبحت غير قادرة على استقبال المزيد من الراغبين. وكان من مقتضيات ذلك البحث عن فضاء آخر يستجيب لهذه الرغبة الاجتماعية المتقدة.

ومن هنا؛ عرفت مدينة طوبى ذات التقاليد الصارمة ولادة أول معهد إسلامي، وهو المعهد الأم كما يسميه أهل البلاد. وتفرع عنه مع مرور الزمن معاهد أخرى كثيرة.

واليوم؛ لا يكاد المرء يجد إقليما سنغاليا إلا ويتوفر على واحد من هذه المعاهد التي بناها هذا الشيخ. وتدرس به أعداد هائلة من التلاميذ من الذكور والإناث على حد السواء. وليس في مقدوري إعطاء أرقام مضبوطة لعدد التلاميذ ممن يدرسون أو تخرجوا من هذه المعاهد عبر الجمهورية السنغالية منذ التأسيس.

والجدير بالبيان هنا؛ هو أن تأسيس المعهد الأم بـ طوبى شكل عاملا جوهريا تمخض عنه إنشاء مؤسسة إسلامية كبيرة تعد أكبر المؤسسات الإسلامية في السنغال. وهي مؤسسة الأزهر الإسلامية للتربية والتعليم.1 وسماها الشيخ بهذا الاسم تيمنا بالأزهر الشريف في الديار المصرية. والأهداف الجليلة المرسومة التي تسعى إلى تحقيقها هذه المؤسسة كثيرة، وغايتها هي خلق جيل

---

[1] – راجع لمزيد من التوسع حول هذه المعاهد البحث القيم الذي قدمه زميلنا الأستاذ عيسى أنجاي لجامعة الشيخ أنت جوب بدكار (المدرسة العليا للأساتذة القسم العربي) لنيل شهادة الكفاءة للتعليم المتوسط والمعنون: مؤسسة الأزهر للتربية والتعليم دراسة تقويمية.

مسلم صالح ومنتج لنفسه ولوطنه. وتعد اليوم من أبرز المؤسسات الإسلامية التي لها الآثار الدينية الملموسة ليس على الصعيد السنغالي فحسب وإنما في الخارج أيضا.

فمن الناحية الداخلية نجدها مميزة عن غيرها، إذ استطاعت أن تزاوج بين الممارسة التربوية والعمل المؤسسي الإسلامي من خلال مشاريع استثمارية كثيرة راهنت عليها في تحقيق ذاتيتها. وتدر عليها بمردودية لا بأس بها. ومن هذه الموارد أنجز المؤسس ما هو غني اليوم عن الكلام في السنغال. وإن هذا مما يفتقر إليها العديد من المؤسسات الإسلامية التي يؤسسها الدعاة الأفارقة.

وفي الإطار الداخلي دائما؛ حققت مكاسب مهمة في المسارين الاجتماعي والسياسي. ففي المسار الاجتماعي؛ قدم للمجتمع السنغالي خدمات اجتماعية قليلة النظير في المنطقة. وأبرز ما يمكن أن يسجل عن أهم أعمالها في هذا السياق هو إسهامها إلى جانب الدولة السنغالية في خلق فرص العمل للشباب في قطاعات متعددة.

وإذا ما عرجنا على خدماتها الإنسانية، سنجد لها أيضا اليد الطولى والقدم الراسخ في هذا المضمار. ولقد اهتم بالشرائح الاجتماعية دون تمييز بين طبقة وأخرى أو بين قبيلة وسواها.

هذا، وقد تخطت خدماتها الإسلامية التخوم السنغالية لتصل إلى بعض البلاد الإفريقية والأوروبية والأمريكية التي بنت فيها مساجد تحتوي على كتّاب يدرس به أبناء الجالية السنغالية المسلمة وغيرها من جاليات أخرى.

وأما في المجال التعليمي الذي يشكل أحد العوامل الجوهرية التي حفزت الشيخ لتأسيسها، فنراها منذ انطلاقة أعمالها في السبعينات لم تمل من خدمة العلم ومساعدة طلبته، إذ قامت بمجهودات فريدة من نوعها، تمثلت في بناء المعاهد الإسلامية من أقصى السنغال إلى أقصاه، ويتخرج منها سنويا مئات التلاميذ من الفئتين البنين والبنات. وبفضل الله تعالى ثم بسبب هذا العمل الخيري المثمر، تحول السنغال في ظرف أعوام وجيزة إلى بلد إفريقي ذي نموذج إسلامي رائع بغرب القارة. وقد أضفى ذلك على الحياة الإسلامية فيه طابع الخصوصية والتميز. بل وجعلت منظومة التربية الإسلامية قفزت قفزات أمامية ملموسة.

وإذا ما أطلنا على الناحية السياسية، سنجد المؤسسة تتمتع بعلاقات مميزة مع السلطات المحلية التي رخصت لها لتمارس نشاطاتها التربوية. بل وإن الدولة السنغالية توفر لطلبتها الدارسين بكل من مصر والمغرب منحا دراسية. وكل هذا بفضل المساعي

الحميدة التي قام بها الشيخ.

وعلى الصعيد الخارجي، استطاعت أن تربط السنغال إسلاميا بالعالم الإسلامي بنوع عام والعربي منه من وجه خاص ومـــدت جسور التواصل الأخوي بينها والمؤسسات الإسلامية العالمية التي تتعاون معها في المجال التربوي. وأذكر منها: جامعة الأزهـــر في الديار المصرية، وجمعية الدعوة العالمية الليبية.

بينما على مستوى الدول؛ فإن المملكة المغربية تقدم ســـنويا منحا دراسية لحملة الشهادة الثانوية من تلامذة المعهد. كما تتولي بدفع أجور بعض مدرسيه. ونفس الخدمة تسديها إليها الحكومـــة الموريتانية. واليوم؛ يدرس ببعض البلاد العربية وتحديدا بـــالمغرب ومصر أعداد هائلة من تلامذة هذا المعهد.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن تأسيس هـــذه المؤســـسة كـــان في الحقيقة بشارة للأمة السنغالية المسلمة بصفة عامة ولأسرة التعليم الإسلامي وبالأحرى المثقف السنغالي المسلم بشكل خاص.

لقد ظل هذا التعليم أعواما يتعثر بفعل الإكراهات. وظل هذا المثقف العامل في مجاله –كما هو الحال لكافة المثقفين المسلمين في المناطق الإفريقية غير العربية–يعيش في أوضاع اجتماعية مزريـــة نتيجة التهميش والإقصاء اللذين عانت منهما الطبقة الإســـلامية

على عهد الأنظمة السنغالية السابقة. وظلت الممارسة التعليمية هي الأخرى مضببة وغير واضحة الأبعاد بسبب الغياب شبه الكامل للمعطيات التربوية اللازمة. ونتيجة لهذه الأوضاع وتلك الظروف غير الملائمة، صارت غالبية طلبة الدراسات الإسلامية في أوطانهم ضحايا الأفكار الخرافية.

بيد أن الأدوار المقدرة التي مثلها الشيخ في السنغال ساعدت إلى حد كبير على تحسين مستوى التعليم ورد الاعتبار إلى العاملين في مجاله. وقد جعل ذلك التعليم الإسلامي السنغالي يتخطى تلك الحدود التقليدية. وهذا ينم بصورة عميقة عن مستقبل إسلامي نضير في الديار السنغالية.

وغاية ما في الأمر، أن الجهود التي بذلها الشيخ محمد المرتضى في مجال خدمة العلم الشرعي والعناية بأهله، جهود جبارة ومقدرة تستحق الكتابة لبيان قيمتها العملية في حياة السنغال الإسلامية. ولا شك في أنها ستحسب له بإذن الله يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. وستظل أيضا راسخة في ذاكرة الأمة الإسلامية بالسنغال ومدونة في سجل تاريخها الإسلامي.

فهذه هي الحقيقة الواقعية التي يجب الاعتراف بها، خصوصا

إذا ما تحرر المرء من قيود العاطفة المذهبية ومعايير الانتماءات الطرقية. هذه الظاهرة التي أصبحت للأسف الشديد في القضايا الإسلامية بإفريقيا تحول بين البعض والموضوعية وتجعلهم يحطون من قيمة أعمال الآخر. مع أنه ليس إلا سلوكا يذمه الدين ويأباه العقل السليم. فالواجب على المسلم أن يتنزه منه ويرد الجميل دائما إلى أهله وأن لا يترك الأنانية الدينية تتحكم فيه وتحمله على نتر أشياء الناس ظلما. وإنها لا تجعل النظرة إلى الآخر إلا نظرة ضدية.

هذا، ولقد كان للشيخ الطوبوي في حياته غصتان كبيرتان. أولاهما تمثلت في بناء معاهد إسلامية يتعلم بها أبناء المسلمين. ومن ثم تأسيس مؤسسة تخدم الأمة الإسلامية بالسنغال. وثانيتهما تجسدت في بناء جامعة إسلامية في المدينة التاريخية طوبى. أما الأولى؛ فقد تحققت في حياته، بينما وافته المنية قبل تحقيق الثانية رحمه الله.

الفصل الثالث

المشروع الطوبوي

قراءة في أهميته بالمنطقة:

في صبيحة يوم السبت 19 جمادى الثانية 1425 الموافق 8/7/ 2004، توفي الشيخ محمد المرتضى. غير أن مشروعه لم يمت. لأنه بعد رحيله، واصل ابنه البار الشيخ مام مور امباكي–حفظه الله– مسيرة والده التنموية. فكان المشروع الطوبوي هذا أولى الاهتمامات التي أخذها على عاتقه. إذ بادر بلا ملل ولا كلل إلى وضع الحجر الأساس لهذه الجامعة التي ظل حلم بنائها يراود والده. وقد شرع في الإنجاز والجهود متواصلة على قدم وساق لاستكماله في أقرب الآجال [1].

إن قراءتنا لهذا المشروع الإسلامي الضخم، تكتسي أهميته في كونه الأول من نوعه في تاريخ التعليم الإسلامي لإفريقيا عامة وغربها خصوصا. لقد مضت سنوات طوال على انطلاقة عملية التعليم الأصيل في البلاد الإفريقية غير العربية، بيد أن القارة ما تزال لا تتوفر بعد على جامعات تفتح للشباب آفاق مواصلة الدراسة، ومعلوم أن هذا الأمر بات حلما يراود اليوم معظم شباب المنطقة؛ ونحن نأمل أن تتحقق لشبابنا المسلمين هذه

[1] - لقد تم يوم :15 / 2005/03م وضع الحجر الأساس لهذا المشروع ، وحضره الخليفة العام للطائفة المرية محمد الأمين بار امباكي موفدا آنذاك من طرف المرحوم الشيخ صالح امباكي، كما حضره عدد من أعيان الطرق الأخرى وشخصيات رسمية ومدنية.

الغاية العظمى في الغد المرتجى إن شاء الله تعالى.

وفي نطاق التعاون العربي الإفريقي في المجال الإسلامي، تم بناء الجامعة الإسلامية بنيجر، مبادرة تشكر عليها الجهة الفاعلة جزيل الشكر. بيد أن الطاقة الاستيعابية لهذه الجامعة غير كافية لاستقبال تلك الجموع الشبابية الوافدة إليها كل عام، دون إغفال للمشاكل المادية التي تواجهها. مما يجعلها تقلص عدد المقبولين. وكل ذلك يؤكد أهمية هذا المشروع.

وثمة أمر مهم يضفي عليه طابع التميز، ويكمن في كونه مشروعا يتم تمويله من الموارد التي أوقفها الشيخ لله تعالى. الأمر الذي سيجعل جامعة طوبى الإسلامية بعيدة عن كل الإملاءات الخارجية. ومهما يكن من أمر، فإن هذه الجامعة؛ جاء تأسيسها في الظرف المناسب. وفي وقت أصبحت الحاجة إليها وإلى أمثال أمثالها في المنطقة حاجة ماسة.

ومما لا شك فيه هو أن بناء هذه الجامعة الإسلامية الكبيرة في السنغال، ستتمخض عنه مستقبلا مجموعة من الانعكاسات الإيجابية، نلمس في مسارات متعددة.

ففي المسار الثقافي، أكيد أنه سيكون له إسهامات عميقة في إنعاش هذا المجال بإفريقيا. وكلنا ندرك؛ أن قارتنا من هذه الناحية

بالرغم من توفرها على الألوف المؤلفة من أطر إسلامية، إلا أنها ما تزال مهمشة ثقافيا نتيجة لانعدام الفضاءات العلمية التي من شأنها أن تنعشها. علما أن ذلك رهين بمدى انفتاحها على التواصل مع الآخر. والمؤسف أن جسور هذا التواصل في إفريقيا منكسرة انكسارا مهولا. وإن هذا مما جعلها في المجال الثقافي لاسيما الإسلامي في القهقرى.

إضافة إلى هذا، فإنه سيجعل من السنغال قبلة لطلبة العلم ومنبعا من منابع العلوم الشرعية ومنهلا من مناهل الفكر وحاضرة علمية ذات صيت عظيم بغرب القارة. إننا بهذه الجامعة متفائلون للغاية. وطموحاتنا هي أن تسهم في إرساء الوعي الديني وتطوير منطلقات المجال الثقافي والارتقاء به إلى أليق المستويات.

وأهيب بالقائمين عليها أن يأخذوا في وضع مناهجها القضايا التراثية لإفريقيا بالاعتبار. فقارتنا لها من التراث ما لا يقل قيمة عن غيره. وللأسف الشديد فإن هذا التراث مهدد بالاضمحلال نتيجة عدم الاهتمام من طرف الباحثين الأفارقة. ولا شك في أن الوتيرة إذا استمرت على ما هي عليه اليوم ستكون النتيجة الحتمية لهذا الإهمال هي ضياع الإرث الثقافي والمعرفي لقارتنا.

وأسأل الله تعالى جل علاه أن يمكن جامعة طوبى من سد هذه الهوة، وأن

يجعلها كذلك فضاء علميا ينتج العلماء والمفكرين المستنيرين يدعون إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة وينافحون عن بيضة الإسلام وحقوق المسلمين في كل زمان ومكان ويكونون عند المسئولية الدينية التي تنتظرها منهم القارة ويصيرون في الغد المرتجى من المؤثرين فيها ومن صناع قراراتها. راجيا من وجهه الكريم وعظيم سلطانه، أن يعين أولاد الشيخ على إتمام مسيرته وأن يجعلهم قادرين على تحمل المسئولية الدينية الجسيمة التي تركها لهم. إنه نعم المولى ونعم النصير.

نبذة مقتضبة عن مدينة طوبى

إن بناء هذه المعلمة العلمية في هذه المدينة بالذات ولـــيس في غيرها لم يكن في نظري إلا تكريما لها وتشريفا على جهودهـــا في خدمة الإسلام والوطن معا. لذا؛ من المفيد هنا تعريف القـــارئ خصوصا غير السنغالي بهذه المدينة التاريخية العتيقة.

تعد مدينة طوبى من المدن التاريخية العتيقة في غرب إفريقيـــا، أسسها المجاهد السنغالي الشهير الشيخ أحمد بمبا. لقـــد أطرهـــا بحدود دينية وقوانين اجتماعية صارمة مانعا فيها كل مـــا يخـــل بالشريعة والمروءة. ومن ضمن ما منعه فيها وشدد في عقوبته هو الفواحش والتعاطي للمشروبات أيا كان نوعها. مما جعل الحيـــاة فيها تميزت بالمحافظة والصرامة. إذن فالمجتمع الطوبـــوي مجتمـــع إسلامي محافظ له تقاليده وعاداته المستمدة من الشريعة الإسلامية التي رسخ دعائمها هذا الشيخ. لهذا يسميها أهلها بـــــ المدينـــة المحروسة.

إن طوبى ليست كغيرها من المدن السنغالية الأخـــرى. لقـــد توافرت فيها مواصفات جعلتها مدينة مميزة، وأكسبتها مع المـــدة ريعا اجتماعيا كبيرا وفضلا دينيا وسياسيا عظيما. لقد استطاعت

من خلال أحداث جسام لاسيما في حقبة الاحتلال الأجـــنبي أن تخطف إلى نفسها الأضواء.

بالإضافة إلى هذا؛ فإنها كانت مهدا للطريقة المريديـــة1 الـــتي أسسها مؤسس المدينة. فهي مدينة مجاهدة ومناضـــلة. وقفـــت بروحها ودمائها الزكية وبكل قواها أمام التيـــار الاســـتعماري الجارف وقفة جسورة. وناضلت من أجل كرامة الوطن والمواطن نضالا باسلا ما يزال بمجرياته ووقائعه وأحداثه وكافة معطياتـــه راسخة في ذاكرة الأمة السنغالية عموما والمواطن الطوبوي على وجه الخصوص. ويتمثل في تلك المواقف التاريخية التي ســـجلها مؤسسها الشيخ أحمد بمبا الذي لم يكن مربيا فحـــسب ولكـــن مجاهدا من المجاهدين السنغاليين الأفذاذ.

هذا، ولقد شكلت الحركة المريديـــة في المقاومـــة الـــسنغالية عنصرا نضاليا وجهاديا مهما. وما بذلته في هذا المضمار لا يختلف

---

[1] –هي إحدى الطرق الصوفية الأكثر انتشارا في السنغال. أسسها المجاهـــد السنغالي الشيخ أحمد بامبا. انظر لمزيد من التفصيل عـــن هـــذه الطريقـــة في كتاب: النهج القويم في سيرة الشيخ الخديم للحاج محمـــد المحمـــود انيـــانغ الطوبوي ص: 29

في مضمونه ومعطياته قيمة عما قامت به القادرية1 والتيجانية2 وغيرهما من الطرق الصوفية الأخرى. لقد جاهدت الطريقة المريدية في سبيل نشر الدين الجهاد الحقيقي، واستطاعت أن ترفع راية الإسلام في الأفق السنغالي عالية وخفاقة كالطود الشامخ لم تنكسر ولم تلن أمام القوى الباغية.

لقد تميزت طوبى بمزايا وخصائص كثيرة يمكن إجمالها في كونها

---

1 – المعلوم تاريخيا عن هذه الطريقة أنها من تأسيس الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله. لقد انتشرت في غرب إفريقيا عبر منافذ متعددة منها الهجرات والدعوة والتجارة والتعليم. وفي السنغال تعد قرية (انجاسان) التي تقع جنوب تيواون أهم التجمعات السكانية للطائفة القادرية، ويقام فيها احتفال ديني سنويا لذكرى مولد الرسول عليه الصلاة والسلام. ويتصف القادريون بتسامح كبير، يصل بهم إلى قراءة قصائد الطرق الأخرى في حفلاتهم الدينية. انظر لمزيد من الفائدة والتوسع في البحث الجيد الذي أنجزه الباحث السنغالي الأستاذ حسن سانه لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان في وحدة المناظرات الدينية وأساليب الحجاج في موضوع: الطرق الصوفية في السنغال المريدية نموذجا.

2 – من الطرق الصوفية التي مثلت جهدا كبيرا في نشر الإسلام بغرب إفريقيا. وانتشرت في السودان الغربي على يد الحاج عمر تال الفوتي رحمه الله. ولها زوايا كثيرة عبر السنغال. راجع البحث المذكور لحسن سانه.

المدينة السنغالية التي أخذت على عاتقها نشر الإسلام في ربوع البلاد في وقت كان الطغيان في أوج غليانه بالبلاد الإفريقية وخاصة في غربها. لذا؛ يستحيل إنجاز بحث علمي هادف في القضايا السنغالية سواء السياسية منها أو الدينية بالحيدة عن هذه المدينة التي تركت في التاريخ السنغالي أطيب الأثر. إنها مدينة مجاهدة، ومناضلة، وعلمية. وهي من مراكز الحياة الروحية بالسنغال بشكل خاص وغرب إفريقيا من نوع عام.

واليوم تشكل في النمو الديمغرافي في البلاد عنصرا مهما لاسيما في الاقتصاد. فهي بمثابة القلب النابض لها. وتعد من كبريات المدن السنغالية ومن أكثرها بعد العاصمة دكار كثافة سكانية. وتزخر بالأماكن الأثرية والتاريخية.

شهدت منذ تأسيسها إصلاحات بنياتية على عهد خلفاء الطريقة المريدية التي تتخذ منها عاصمة للخلافة. وبلغت النهضة العمرانية الأوج في زمن الخليفة الشيخ عبد الأحد.1 وما تزال

---

1 –هو الشيخ عبد الأحد بن الشيخ أحمد بمبا، ولد في سبتمبر من عام: 1914، وتولى الخلافة في أغسطس من عام: 1968، وتوفي في يونيو عام: 1989. ومن أهم إنجازاته أنه هو الذي بنى المكتبة الإسلامية في طوبى. ووسع المدينة، وطلب من السلطات السنغالية تحريم المسكر والتدخين وكل

المشاريع النهضوية متواصلة في زمن الخليفة الحالي الشيخ صالح.1 هذا، وللمدينة مناسبة دينية يحتفل بها السنغاليون عامة والمريدون خاصة مرة من كل عام. وتعرف بـ"مغال" طوبى2. وهي ذكرى نفي مؤسس المدينة إلى غابون.3

المجون في طوبى. وأسس عددا من القرى للتربية. راجع لمزيد من الفائدة كتاب: النهج القديم المرجع السابق ص:95

1 – هو الشيخ صالح بن الشيخ أحمد بمبا، ولد عام 1915، وتولى الخلافة في مايو من عام:1990 وتوفي يوم الجمعة في 20007 /12/28. الموافق: 17/من ذي الحجة عام:1428هـ. ومن أعماله أنه قام بتوسعة مسجد طوبى، وكان قد بدأ بمشروع إصلاحي ضخم كان يهدف إلى تجديد البنية التحتية فيها. ولكن المنية وافته قبل أن يستكمل عمله رحمه الله تعالى. انظر عن حياته في كتاب: النهج القويم المرجع السابق ص:113 ونسأل الله أن يعين الخليفة الحالي الشيخ محمد الأمين بارا امباكي بن= الشيخ محمد الفاضل على إتمام مشروع الشيخ صالح.

وللإشارة؛ فإن الشيخ محمد الأمين بارا هذا؛ هو ابن الخليفة الثاني للشيخ الخديم. وهو أيضا أول من تولى الخلافة من أحفاد الشيخ أحمد بامبا.

2 – مغال كلمة ولوفية وتعني: تعظيم الله وشكره على نعمه. والاحتفال بها يكون في 18/من شهر صفر من كل عام هجري.

3 – وتعود أسباب هذا النفي إلى أن المستعمر اتهمه بتدبير الجهاد ضد وجوده في السنغال وحيازة الأسلحة. ولكن ذلك كله كان أمرا مفتعلا من

وفي إطار هذا الاحتفاء، نظم المريدون من الطلبة الـــسنغاليين المقيمين بمرتيل حفلا دينيا احتفاء بهذه المناسبة التاريخية بتعاون مع مواطنيهم من مريدي الطريقة التيجانية.1 وعكس الحفل بصورة ملحوظة مدى التلاحم الاجتماعي والتضامن الأخـــوي اللـــذيْن يربطان مريدي الطريقتين ببعضهم البعض ربطا متينا مـــا كـــان للاختلاف الطرقي أن يقطع عروته الوثقى. وهي روابط تتجـــذر أساسا من مبادئ التعايش التي أرسى الشيخ أحمد بمبا دعائمها بين كافة الطرق الصوفية بالسنغال حيث يقول في إحدى قصائده:

فكل ورد يـــورد المر يدا لحضرة الله ولـــن يـــحيـــدا

سواء انتمى إلى الـــجيلاني أو انتمـــى لأحمد التـــيجـــاني

طرف الوشاة. ولقد أجابهم الشيخ مبينا لهم نوعية جهاده المتمثلة في الجهـــاد بالعلم والتقى. وهذا ما تضمنته قصيدته التي مطلعها :

يا جملة قد ثلثوا بضلالهم من لم يكن ولد له أو والد

1 – لقد حضرت أحد هذه الاحتفالات التي نظمها الطلبة السنغاليون عـــام 2006 بمرتيل. وكان حفلا دينيا تميز بعروض قيمة قـــام بإلقائهـــا بعـــض الشباب. تحدثوا فيها عن أهمية هذه الذكرى وما تتضمنه من قيمـــة تاريخيـــة للسنغال وشعبه. لقد كتبت مقالا حول هذا الحفل بعنوان: الشيخ أحمد بامبا الوجه المشرق للسنغال. وأتمنى أن تنشره مجلة الأزهر يوما ما إن شاء الله.

أو لسواهما من الأقطـــاب إذ كلهم قطعا على الصواب[1]

وجاء "مغال" طوبى ليوطد هذه العروة ويمتن حبـــل الأخـــوة معلنا للناس أن الاختلافات الطرقية لا يمكن أن تؤثر على الوحدة الوطنية السنغالية ولا على تضامن الشعب السنغالي أيضا.

ومما تتميز به مدينة طوبى أيضا، هو ذلك التقسيم العرفي الذي يعود تاريخه إلى عشرات الأعوام. لقد قسمها المؤسس إلى ديـــار مختلفة، وأعطى لكل دار اسما خاصا يعكس الرؤية الدينية الـــتي أراد من خلالها تأسيس مدينة ذات مبادئ إسلامية ستكون على المدى البعيد عاصمة الخلافة المريدية. وهذا مما نلمسه من هـــذه التسمية. فتلك أمنية حققها الله تعالى له. و من هذه الديار: دار العليم الخبير، ودار المنـــان، ودار المعطـــي، ودار المـــنن، ودار القدوس، وأخرى سماها ب:سُر من رأى. وما تزال هذه الـــدور بـــ طوبى إلى اليوم.

هذا؛ ويشكل جامع طوبى أبرز المعالم الإسلامية في المدينة. لقد تم وضع الحجر الأساس له يوم الجمعة المبارك السابع عشر مـــن شهر ذي القعدة من عام: 1350هـــ الموافق: 1932/2/2م علـــى

[1] –مسالك الجنان في جمع ما فرقه الديماني/ للشيخ أحمد بمبا.ص22.

عهد الخليفة الراحل الشيخ محمد المصطفى.1

فلا غرو اليوم أن نرى هذه المدينة العتيقة ذات الرصيد التاريخي الخالد تحتضن في رحابها المترعة بالعطاء الديني هذه الجامعة الإسلامية التي ما من شك في أن تنفيذ مشروعها يعتبر تحقيقا لواحدة من الطموحات التي طمح إليها الشيخ محمد المرتضى في حياته. لذا، فإن هذا المشروع الإسلامي الضخم يندرج ضمن الأعمال الخالدة التي ستظل الأمة السنغالية على مر العصور وتلاحق الدهور تذكر بها الشيخ محمد المرتضى إلى الأبد.

---

[1] – لقد تقدمت ترجمته

الخاتمة

قبل أن أسجل هنا بعضا من النتائج المتوصل إليهـــا في هـــذه الخاتمة ، أود أن ألمح أولا إلى أن هذه الدراسة لم تكف لملامـــسة كل الترسمات العملية لهذا الشيخ الجليل ولا لسبر أغوار حياته ، ذلك، أن كل جانب من حياة الشيخ محمد المرتضى ـــ رحمه الله تعالى ـــ أو كل اثر من الآثار الإيجابية الـــتي خلفهـــا ، يـــشكل موضوعا يمكن أن تنجز فيه بحوث.

لهذا، لا أدعي أنني استطعت أن أحيط بهذا الموضوع إحاطـــة عميقة وشاملة ، ولا أن استوفيته حقه من الدراسة والمعالجـــة، فالموضوع ما يزال بحاجة إلى دراسة أعمق ، وتحليل أعم ومعالجة أشمل، واستقصاء أوسع ، وأســـأل الله تعـــالى أن يجعـــل هـــذه الصفحات القليلة نافعة ومفيدة لكل من سيطلع عليها ويشبع بها النهم . وإلى هنا سأسجل نتائج انتهيت إليها خلال هذه الدراسة المتواضعة.

وأولى نتيجة أسجلها هي أن الشيخ محمد المرتضى ـــ عليـــه رحمة الله الواسعة ، كان داعية حكيما ، ومربيا نصوحا وإنسانيا من الدرجة الأولى ، حمل مشعل الدعوة في السنغال واستطاع أن

يوصل الرسالة الدعوية إلى الفئة المستهدفة بالاستناد إلى الحكمة والموعظة الحسنة ، راعيا مبادئ الوسطية والاعتدال ، متأسيا في ذلك بالداعية الأعظم المصطفى عليه الصلاة والسلام، مما جعل دعوته ذات أثر فعال لاسيما في البلاد الغربية التي كان يسافر إليها للدعوة ، لذا فإن رحيله شكل حدثا بارزا هز منظومة الدعوة الإسلامية.

ومن النتائج المهمة التي أراها جديرة بالتسجيل في هذا السياق ، هي أن الشيخ محمد المرتضى مثل في حياته الصورة الحية والنموذج الرائع للمصلح التربوي، برز في حقبة كانت محفوفة بالتحديات من كل الجهات سياسيا واجتماعيا... وواجه الصعوبات وتحمل المشقات ، غير أنه تغلب عليها بقوة الإيمان وعزيمة اليقين الصادقة، مما أكسبه صبرا جميلا وجهدا موصولا، وثباتا على العمل حتى استطاع بعون من الله أن يؤصل في السنغال صرحا تعليميا شامخا ويُعنى بالعمل التربوي والمؤسسي بإسهاماته الخاصة التي بلورت المنطلقات وفتحت الآفاق الجديدة وحددت الأهداف وأزالت السحب الملبدة التي ضببت أعمال التعليم الإسلامي في السنغال ردحا من الزمان، وحسنت صورة العاملين في مجاله وردت إليهم الاعتبار، وحررتهم من التصورات

والمفاهيم الخاطئة التي جعلتهم في سلكهم الاجتماعي ضحايا الفكر الخرافي .

وأخيرا أقول إن حياة الشيخ محمد المرتضى يجب أن يُعنى بها، وأن تُؤلف فيها الكتب وتنشر، ويُعَلم بها الجيل الحالي واللاحق، لأن ما قام به من جهود فردية حَرية بالكتابة وجديرة بالتدوين. شخصيا لقد أكسبني هذا البحث معرفة عميقة عن السنغال، ففي إطاره زرت مدينة طوبى للمرة الأولى ووقفت بنفسي من خلال جولة ميدانية على المشاريع الضخمة التي رسمها شيخنا، إنها مشاريع كبيرة وطموحة. لقد رحل رحمه الله، بيد أن آثاره الطيبة ستبقى في الأراضي السنغالية مما ينفع الناس والتعليم الإسلامي والتاريخ والحضارة (وأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض)

وإذ أرجو أن تسعفني الظروف وتحالفني الحظوظ مستقبلا للقيام بدراسات مماثلة حول شيوخ قاموا بمثل عمله وبذلوا أيضا مثل جهوده. وإن قارتنا تتوفر من الأقصى إلى الأقصى على العديد منهم.

وللأسف الشديد فإن حياة الشيوخ الأفارقة دعاة كانوا أو علماء، لم تحظ بعد من طرف الطلبة الأفارقة الدارسين في أسلاك

الدراسات الإسلامية بالقدر المطلوب من العناية والاهتمام، وبالأحرى حقها من البحث والتنقيب. فهي بحاجة إلى نفض الغبار عنها على وتيرة تبرز حقيقة حياتهم الحافلة بالعطاءات الدينية.

ومما ينبغي أن يعلم، أن معظم هؤلاء الطلبة الذين تعول عليهم إفريقيا، راحوا يبحثون في موضوعات قد قتلت–كما يقال– بحثا وتنقيبا ودراسة وتحليلا، وهي موضوعات يتم تكرارها في سياقات زمنية مختلفة وبعناوين مختلفة كذلك مع كون مضامينها واحدة. غير أن ذلك لا ينجلي إلا لمن يشرح نصوصها بالمبضع. وبالإضافة إلى كونها مكررة، فإنها لا تمت بالواقع الإسلامي الإفريقي في شيء. وإن هذا مما أود من خلال هذا العمل المتواضع التنبيه إليه تذكيرا بالمسئولية الدينية التي يتعين علينا جميعا أن نكون عندها، قولا، وعملا، وتدوينا. وآمل أن تكون خطوة إيجابية تستثير الهمم وتحرك العزائم والإرادات.

وفي الختام أشكر ربي الذي يسر لي هذا العمل ووفقني إليه. وما كان لي أن أنجزه لولا توفيقه. فاللهم لك الحمد الدائم والثناء المتواصل والشكر غير المحدود. واجعلني من عبادك الشاكرين. وقل رب زدني علما.

مصادر البحث ومراجعه

*النهج القويم في سيرة الشيخ الخديم للحاج محمد المحمود انيانغ الطوبوي- الأزهر للطباعة والنشر محرم: 1424هـ. مارس 2003م.

*شخصيات من مدرسة الشيخ الخديم.إعداد اللجنة الثقافية التابعة لمؤسسة الأزهر الإسلامية.الجزء الأول .2004.

*مسالك الجنان في جمع ما فرقه الديماني للشيخ الخديم.

البحوث الجامعية

*الطرق الصوفية في السنغال المريدية نموذجا للباحث السنغالي حسن بابا ساني. بحث مقدم لنيل دبلوم الدراسات العليا بجامعة عبد المالك السعدي في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان في وحدة المناظرات الدينية وأساليب الحجاج.

*الدرس القرآني في السنغال الشيخ عبد الرحمن لوح نموذجا للباحث السنغالي فاضل لوح. بحث مقدم لنيل الإجازة في الدراسات الإسلامية بجامعة القرويين في كلية أصول الدين بتطوان.

*مؤسسة الأزهر للتربية والتعليم دراسة تقويمية للأستاذ عيسى انجاي، بحث مقدم لجامعة الشيخ أنت جوب(المدرسة العليا للأساتذة القسم العربي) لنيل شهادة الكفاءة للتعليم المتوسط.

المجلات

رسالة الأزهر العدد: 12/ نوفمبر/2004. عنوان العدد: الشيخ محمد المرتضى فقيد الإسلام والإنسانية.

*رسالة الأزهر العدد: 13/يوليو/2005

*مجلة الصحوة الإسلامية العدد:39/سبتنمبر 2004. صفحة:22. عنوان المقال: الشيخ محمد المرتضى فقيدنا العزيز بقلم فاضل غي.

*مجلة الوحدة العدد رقم:13/2000

الملحقات

وتضم صورا بيانية

فخامة الرئيس السنغالي في زيارة للأزهر مع الشيخ مام مور امباكي امباكي راعي المؤسسة

فخامة الرئيس مرفوقا بوزير التربية في زيارة للجامعة

معهد الأزهر بدار السلام اندام في طور البناء

معهد الأزهر بدار السلام ادام بعد البناء

الشيخ محمد المرتضى -رحمه الله- **مؤسس الأزهر بالسنغال في استقبال**

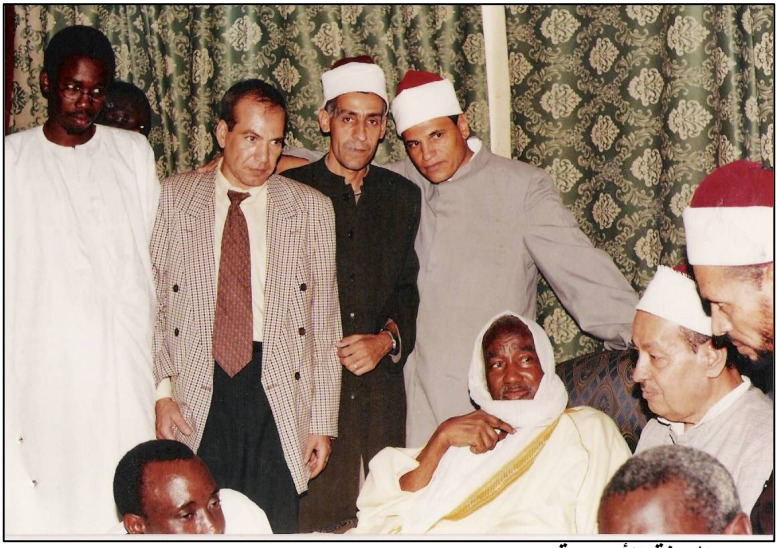

البعثة الأزهرية من مصر

صورة جماعية للبعثة الأزهرية في إحدى قاعات الدراسة

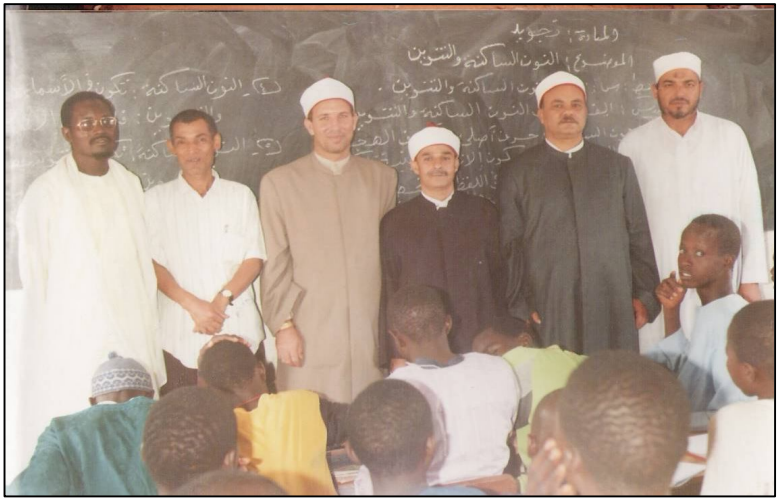

السفير الأمريكي في زيارة للمعهد

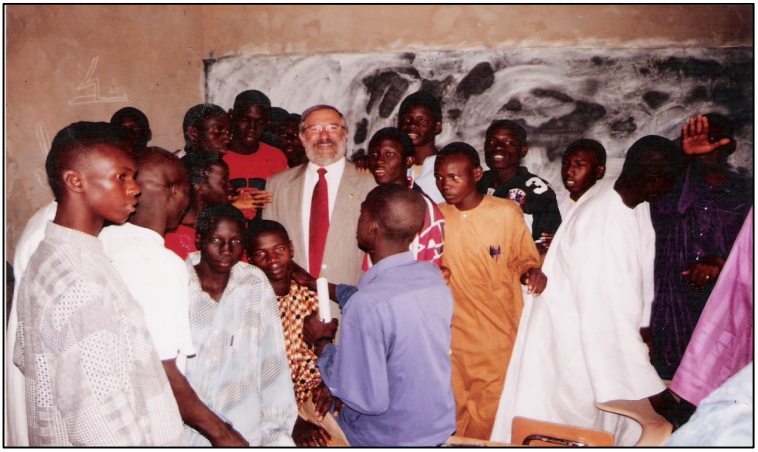

صورة لمعهد البنات بالأزهر فرع سخن ميمونة امباكي بطوبى

صور مجسمة لجامعة الأزهر بمدينة طوبى وتضم كلية الآداب والعلوم الإنسانية وفيها الأقسام التالية:

1. قسم اللغات واللسانيات
2. قسم العلوم التربوية
3. قسم التاريخ والعلوم الدينية
4. قسم الإعلام والاتصالات

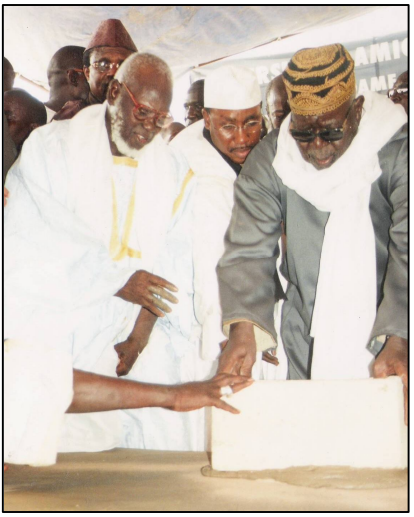

وضع الحجر الأساسي للجامعة في مارس 2005

من اليمين الشيخ محمد الأمين بار امباكي الخليفة العام للمريدين مع الشيخ مام مور امباكي والشيخ منتقى امباكي.

كتب مهداة من طرف السفارة الأمريكية للمؤسسة

من اليمين الشيخ مام مور امباكي ووزير التربية مصطفى سورانغ

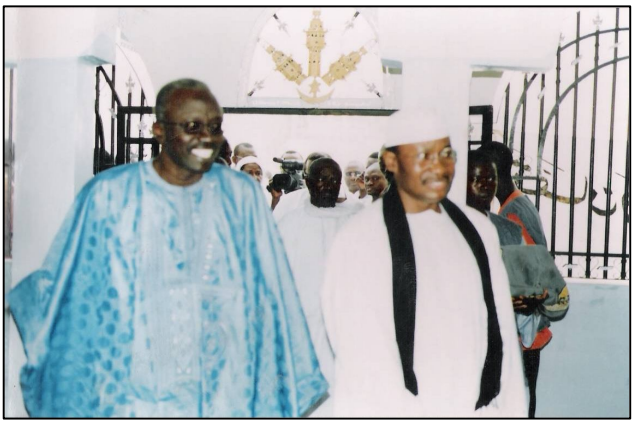

الفهرس

الشكر 4

المقدمة 5

الحوافز على هذه الدراسة 11

الفصل الأول

الشيخ محمد المرتضى امباكي..... 14

لمحة من حياته 15

الفصل الثاني

انجازاته 21

الفصل الثالث

المشروع الطوبوي 31

قراءة في أهميته بالمنطقة 32

نبذة مقتضبة عن مدينة طوبى 36

الخاتمة..... 44

المصادر والمراجع 48

الملحقات 50

سطور عن الباحث

كوناتي موسى عمر من غينيا كوناكري ، مولود بمدينة أنزريكوري عام 1977
ـ حصل على الشهادة الثانوية الحرة من معهد أبي بكر الصديق الإسلامي في نفس المدينة.
ـ و على الإجازة من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (المملكة العربية السعودية) كلية الدعوة.
ـ وعلى ديبلوم الدراسات العليا المعمقة في العقائد والفلسفة من جامعة القرويين في تطوان، كلية أصول الدين (المملكة المغربية).
ـ وعلى الدكتوراه من جامعة عبد المالك السعدي–كلية الآداب والعلوم الإنسانية– بتطوان، وحدة تاريخ الأديان والحضارات الشرقية، في موضوع: الإسلام والمسلمون بغينيا ـ الواقع والآفاق.
ـ مهتم بالبحث في القضايا الإسلامية بإفريقيا. وله بحوث غير منشورة في التاريخ، والأدب، والرواية، والتربية الإسلامية بإفريقيا وهي كالآتية:

* رجال المقاومة في غينيا.
* أضواء على غينيا
* الحركة الأدبية في فوتا جالون بغينيا
* التعليم الإسلامي في أنزريكوري بين الماضي والحاضر وأحوال
* المؤسسات القائمة عليه دراسة نقدية وموضوعية
* التعليم الإسلامي في أنزريكوري (قراءة جديدة)
* أزمة التعليم الإسلامي في إفريقيا الأسباب والانعكاسات(قراءة جديدة)
* دراسة تاريخية للفكر الصوفي بغينيا
* السيدا في غينيا من الاكتشاف إلى اليوم
* واقع الحياة في المغرب
* رواية أمينة
* القدر العاثر(رواية)
* أولاد حارتنا(رواية)
* الشيخ محمد المرتضى امباكي(حياته وإنجازاته)

وله بحوث أخرى في طور الإنجاز منها:

* الصورة الإفريقية في الكتابات الأجنبية(صورة الأفارقة)
* رجال المقاومة بالسنغال
* الحياة الروحية بالسنغال
* الشيخ كانتي سليمان نموذج النبوغ الإفريقي
* الجمعيات الإسلامية بغينيا والدور المطلوب
* كتاب ديوان بنات أفكاري للشيخ عبد الرحمن باد(دراسة وتحقيق)
* الدعوة والدعاة بإفريقيا
* ظاهرة ختان البنات في أفريقيا بين العادة والشريعة .
* الباحثة عن الحنين (رواية)